(٦)

تجديد الإيمان في القلب (٢)

تقدَّم ذكر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ، كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ: أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**». رواه الحاكم والطَّبرانِيُّ[(١)].

ومن دلائل هذا الحديث وفوائده: أنَّ تجديد الإيمان يتطلَّب مِنَ العبد أن يُعْنَى بالأسباب الَّتِي تزيدُ الإيمان وتقوِّيه وتنمِّيه، وأنَّ يتجنَّب الأسباب الَّتِي تنقصه وتُضعِفه وتُوهيه؛ فيجتهد في تحقيق ما يُقَوِّي الإيمانَ ويُكَمِّله، ويَحْذَر من كلِّ ما يُضْعِفُ الإيمانَ ويُنْقِصُه.

وفي معرفَة هذه الأسباب فوائدُ عظيمةٌ، ومنافعُ جمَّة غفيرة، بل إنَّ الضَّرورة ماسَّة إلى معرفتِها والعنايةِ بها معرفةً واتِّصافًا؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ هو كمالُ العبد، وسبيلُ فلاحِه وسعادتِه، وبه ترتفع درجاتُه في الدُّنيا والآخرة، وهو السَّببُ والطَّريق لكلِّ خيرٍ، عاجلٍ وآجلٍ، ولا يحصلُ ولا يَقْوَى ولا يتمُّ إلَّا بمعرفة طُرُقِه وأسبابِه.

فجديرٌ بالعبد المسلِمِ -النَّاصح لنفسِه الحريصِ على سعادتِها-: أن

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه (٥)، والطَّبرانِيُّ في الكبير (١٤٦٦٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٥٨٥).

يجتهدَ في معرفة هذه الأسباب، ويتأمَّلها ثمَّ يطبِّقها في حياته؛ ليزيد إيمانُه ويقوى يقينُه، وأن يُبْعِدَ نفسَه عن أسباب نقصِ الإيمان، ويحصِّنها مِنَ الوقوع فيها؛ لِيَسْلَمَ من عواقبِها الوخيمَة، ومَغَبَّتِها الأليمة، ومَنْ وُفِّق لذلك فقد وُفِّقَ للخير كلِّه.

يقولُ العلَّامة عبد الرَّحمن السِّعديُّ رحمه الله: «فالعبدُ المؤمنُ الموفَّق لا يزالُ يسعى **في أمرين:**

أحدهما: تحقيقُ أصولِ الإيمان وفروعه، والتَّحقُّق بها علمًا وعملًا وحالًا.

والثَّاني: السَّعي في دَفع ما ينافيها وينقضُها أو ينقصُها، من الفِتَنِ الظَّاهرة والباطنة، ويداوي ما قَصَّرَ فيه مِنَ الأوَّل، وما تجرَّأ عليه مِنَ الثَّاني؛ بالتَّوبة النَّصوح، وتدارك الأمر قبل فواته»[(١)].

فهما أمران: الكلام عمَّا يكون به تقوية الإيمان؛ وقد سبق بيانه، والكلام عن حفظه وصيانته؛ وهو محورُ الحديث هنا بيانُ حفظ الإيمان مِنَ الأمور الَّتِي تُنقصه، وتتسبَّب في ضعفه ووهائه، ورُبَّما تؤدي إلى ذهابه.

وينبغي للمسلم أن يعلم: أنَّه مطلوب منه؛

* أن يعرف أسباب زيادة الإيمان وقوَّته؛ ليعمل بها ويحافظ عليها.

---

(١) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٨٣).

* وأن يعرف أسباب ضعفه ونقصه؛ ليجتنبها وليكون على حذر منها.

ومن أهمِّ ما يكون في هذا الباب: أن يحذر من نفسه الأمَّارة بالسُّوء، وهي نفسٌ مذمومةٌ توجد في الإنسان؛ تأمره بكُلِّ سوء، وتدعوه إلى المهالك، وتهديه إلى كلِّ قبيح. هذا طبعها، وتلك سجيَّتها؛ إلَّا إذا وفَّقها الله وثبَّتها وأعانها، فما تخلَّص أحدٌ من شرِّ نفسِه إلَّا بتوفيقِ الله، كما قال تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف:٥٣]، وكان النَّبيُّ ﷺ يعلِّمُهم خُطبة الحاجة: «**الْحَمْدُ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ**»(١). فالشَّرُّ كامنٌ في النَّفس، وهو يوجِب سيِّئات الأعمال؛ فإن خلَّى اللهُ بينَ العبدِ وبينَ نفسِه هلكَ بشرِّها وما تقتضيه من سيِّئاتِ الأعمال، وإن وفَّقه وأعانه نجَّاه من ذلك كلِّه.

فلا أضرَّ على إيمان الشَّخص ودينِه من نفسِه الأمَّارة بالسُّوء الَّتي هذا شأنها، وهذا وصفُها، فهي سببٌ رئيسيٌّ في إضعاف الإيمان وزعزعتِه وتوهينِه.

ومن هُنا لزم مَن أراد الحفاظَ على إيمانه مِنَ النَّقص والضَّعف؛ أن يُعنى

---

(١) رواه مسلم (٨٦٨).

بمُحاسبة هذه النَّفس ومعاتبتِها، وأن يُكثِر من لومِها؛ حتَّى يسلمَ من مغبَّتها وعواقبها الوخيمة.

كذلك يلزم في هذا الباب: الحذر مِنَ الشَّيطان؛ فإنَّه يُعَدُّ سببًا قويًّا مِنَ الأسباب الخارجيَّة الَّتي تؤثِّر في الإيمان بالنَّقص، فالشَّيطان عدوٌّ لدود للمؤمنين، يتربَّص بهم الدَّوائر، لا همَّ له ولا غاية إلَّا زعزعةُ الإيمان في قلوبِهم وإضعافُه وإفسادُه، فمَن استسلم لوساوس الشَّيطان، وانقاد لخطراتِه، ولم يلجأ إلى الله منه؛ ضَعُفَ إيمانُه ونقص، بل رُبَّمَا ذهبَ بالكُلِّيَّة، بحسب استجابته لتلك الوساوس والخطراتِ.

ولهذا فإنَّ الله تعالى حذَّرنا منه أشدَّ التَّحذير، وبيَّن أخطاره، وعواقب اتِّباعه الوخيمة، وأنَّه عدوٌّ للمؤمنين، وأَمَرَهُم أنْ يتَّخذوه عدوًّا فيَسْلَموا منه ومن وساوسه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النُّور:٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف:٥].

وقال تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ

حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:٩].

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدوِّ، الَّذي قد أبان عداوتَه من زمن آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد بذلَ عُمره ونفسَه في فساد أحوال ابن آدم، وقد أمر الله بالحذر منه...»(١)، ثمَّ ذكر جملةً من هذه النُّصوص.

وقال ابن قدامة المقدسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ الله سبحانه جعل الشَّيطان عدوًّا للإنسان، يقعد له الصِّراط المستقيم، ويأتيه من كلِّ جهة وسبيل، كما أخبر الله تعالى عنه أنَّه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦]، وحذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من متابعته، وأمرنا بمعاداته ومخالفتِه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ [فاطر:٦]، وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧]، وأخبر بما صَنَع بأَبَوَيْنَا تحذيرًا لنا من طاعته، وقطعًا للعُذر في متابعته، وأمرنا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باتِّباع الصِّراط المستقيم...»(٢).

فالشَّيطان عدوٌّ للإنسان همُّه إفساد العقائد وتخريب الإيمان، فمَن لم

---

(١) تلبيس إبليس (ص٢٣).

(٢) ذمُّ الوسواس للمقدسيِّ (ص٨ - ٩).

يُحَصِّن نفسَه منه: بذكر الله، واللَّجأ إليه، والاستعاذة به؛ صار مرتعًا للشَّيطان يسوِّل له فعل المعاصي، ويرغِّبه في ارتكاب المناهي، ويؤزُّه لارتكاب الفواحش أزًّا، فَيَا ضَيْعَةَ دينه ويا فسادَ إيمانه؛ إن استسلم له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإيَّاك أن تمكِّن الشَّيطان من بيت أفكارك وإرادتِك؛ فإنَّه يفسدها عليك فسادًا يصعبُ تداركه، ويُلقي إليك أنواعَ الوساوس والأفكار المُضِرَّة، ويحُول بينَك وبينَ الفكر فيما ينفعُك، وأنت الَّذي أعنته على نفسِك بتمكينِه من قلبِك وخواطرك؛ فمَلَكها عليك»[(١)].

فمَن عشا عن ذكر الله وأعرضَ؛ لازمَه الشَّيطان تلك الملازمة، يُسَوِّل له ويُملي حتَّى يذهبَ بإيمانه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزُّخرف:٣٦-٣٨].

ومن المهم في هذا الباب: الحذر من قرناء السُّوء وخلطاء الفساد؛ فإنَّهم من أضرِّ ما يكون على إيمان الشَّخص وسلوكِه وأخلاقِه، وقد ثبت عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**». رواه أحمد وأبو داود والتِّرمذيُّ[(٢)]، وهو حديث حسن.

---

(١) الفوائد (ص٢٥٦).

(٢) رواه أحمد (٨٠٢٨)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

قال ابن عبد البرِّ: «وهذا معناه -والله أعلم-: أنَّ المرْءَ يعتاد ما يراه من أفعال من صحبه، والدِّين العادة؛ فلهذا أُمِر ألَّا يَصْحب إلَّا مَن يُرَى منه ما يحلُّ ويجمل؛ فإنَّ الخير عادة.

وفي معنى هذا الحديث قول عديِّ بن زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكُلُّ قرين بالمقارن مقتدي

وقول أبي العتاهية:

من ذا الَّذِي يخفى عليك إذا نظرت إلى خدينه

وهذا كثير جدًّا، والمعنى في ذلك: ألَّا يخالط الإنسان مَن يحمله على غير ما يحمد مِنَ الأفعال والمذاهب، وأمَّا مَن يُؤْمَن منه ذلك فلا حرج في صحبته»[(١)].

وقال أبو سليمان الخطَّابيُّ: «قوله: «**المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ**»[(٢)]، معناه: لا تخالل إلَّا من رضيتَ دينَه وأمانتَه؛ فإنَّك إذا خَالَلْتَهُ قادَك إلى دينِه ومذهبِه، ولا تُغَرِّر بدينِك ولا تُخَاطر بنفسك، فتُخَالل مَن ليس مرضيًّا في دينه ومذهبه»[(٣)].

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص١٥٩ - ١٦٠).

(٢) رواه أحمد (٨٠٢٨)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٣) العُزْلة للخطَّابيِّ (ص٤٦).

وفي الصَّحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»(١).

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه تمثيله ﷺ الجليس الصَّالح بحامل المسك، والجليس السُّوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصَّالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنَّهي عن مجالسة أهل الشَّرِّ وأهل البدع، ومَن يغتاب النَّاس، أو يَكثر فُجْرُهُ وَبَطَالَته. ونحو ذلك من الأنواع المذمومة»(٢).

فلهذا لَزِم المرء: أن يختار مِنَ القُرناء والخُلطاء مَن يكون له في خلطتِهم خير ونفع، وأن يحذَر أشدَّ الحذر من قُرناء السُّوء.

وممَّا استجدَّ في زماننا -وهو داخل في حكم الصَّاحب، بل أمره أشدُّ- الجلوس إلى القنوات الفضائيَّة، والمواقع المنحرفة في الشَّبكة العنكبوتيَّة، حيث يخشى -وخاصَّة على النَّاشئة- ممَّا فيها من فتن وسموم ورذائل وحقارات، تُشَكِّل خطرًا على الإيمان وضررًا على القلوب.

---

(١) رواه البخاريُّ (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

(٢) شرح النَّوويِّ لمسلم (١٦/ ١٧٨).

وكذلك ممَّا يتأكَّد في هذا المقام: الحذر مِن الافتتان بالدُّنيا الزَّائلة، والانهماك في ملذَّاتها وفتنِها ومُغرياتِها، فمتى تعلَّق قلب العبد بها؛ ضعُفت الطَّاعة عنده ونقصَ الإيمانُ بحسب ذلك. فلا بدَّ لمَن أراد لإيمانه النُّموَّ والقوَّة، وأحبَّ له السَّلامة من الضَّعف والنَّقص؛ أن يجاهد نفسَه على البعد عن فتن الدُّنيا ومغرياتها وملهياتها، وما أكثرَها.

قال الله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

ولا يتمُّ له ذلك ولا يتحقَّق إلَّا بعد النَّظر في أمرين:

الأوَّل: النَّظر في الدُّنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخسَّتِها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنَّغص والأنكاد.

وآخِر ذلك الزَّوال والانقطاع مع ما يعقبُ منَ الحسرة والأسَف، فطالبُها لا ينفكُّ من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظَّفر بها، وغمٍّ وحزنٍ بعد فواتها.

والثَّاني: النَّظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بُدَّ، ودوامها وبقائها،

وشرفِ ما فيها من الخيرات والمسرَّات، والتَّفاوت الَّذي بينه وبين ما هاهنا، فهي كما قال سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧]، فهي خيراتٌ كاملةٌ دائمةٌ، وهذه خيالاتٌ ناقصةٌ منقطعة مضمحلَّة.

والَّذي يُذَمُّ مِنَ الدُّنيا: هو فعل الجُهَّال، والعصيان، والاشتغال بها عن الآخرة، واستعمال نعيمِها في غير مَرضاة الله تعالى.

أمَّا نعيم الدُّنيا -من حيث هو- فلا يُذَمُّ مطلقًا، فإنَّ الله قد تمدَّح به في القُرآن الكريم في غير موضع؛ فلا يُذَمُّ مَن تعامل معه باعتدال وقوام.

وحقيق بالمسلم -في هذه الحياة الدُّنيا-: أن يعمل على تجديد إيمانه، وصفاء دينه، وقوَّة صلته برَبِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأن يكون هذا التَّعاهد مستمرًّا إلى أن يتوفَّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غير مغيِّر ولا مبدِّل.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أمر سبحانه عباده المؤمنين أن يُحَقِّقوا تقواه، وأن يستمِرُّوا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، غير مغيِّرين ولا مبدِّلين، ومَن عاش على شيء مات عليه، فمَن كان في حال صحَّته ونشاطه وإمكانه مداومًا على تقوى الله وطاعته، منيبًا إليه على الدَّوام، ثبَّته الله عند موته ورزقه حسن الختام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: حافظوا على الإسلام في حال صحَّتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإنَّ الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنَّه مَن عاش على شيء مات عليه، ومَن مات على شيء بُعث عليه»(١).

وقال تعالى: { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } أي: الموت أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، فلم يزل دائبا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه، وهكذا ينبغي أن تكون حال المؤمن حفظا للعبادة ومحافظة عليها ورعاية لها إلى أن يتوفاه ربه وهو على خير حال.

والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له، وهو الحافظ وحده، ومَن يعتصِم بالله؛ فقد هُدي إلى صراط مستَقيم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٧).